الفصل الثامن: السّلام في الديانة الإسلاميّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم كتاب للسلام، لا كتابًا للحرب أو العنف. ويمكن الحكم على هذا من حقيقة أنّ آيات القرآن جميعها مرتبطة على نحو مباشر أو غير مباشر بالسّلام؛ فاستهلاليّة القرآن هي:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وقد تكرّرت هذه الآية في القرآن الكريم بما لا يقلّ عن 114 مرّة. وهذه إشارة إلى أنّ أعظم صفة للكائن الأسمى الذي أرسل هذا الكتاب هي الرّحمة. وفي الواقع، فإنّ موضوع هذا الكتاب المقدّس كلّه هو رحمة الله الشاملة.

فالجزء الأكبر من هذا الكتاب المقدّس يدعو إلى السّلام وبقوّة، سواء على نحو مباشر أو غير مباشر، ومن آيات القرآن الكريم العديدة، أنّ نجد هناك 40 آية تتعامل معَ أوامر شنّ الحرب، في حالة الدّفاع عن النفس فقط، وهذا يشكّل ما هو أقل من واحد في المئة، ولنكون أكثر دقّة، فإنّ النسبة هي 0.6% فقط.

إنّ أولئك الذين يقبلون القرآن كتابًا لله، سيتمّ عدّهم مؤمنين حقيقيين فقط عندما يتّبعون العبر الواردة فيه ليصبحوا من محبّي السّلام بالمعنى الكامل للكلمة.

وعليهم ألا يشركوا أنفسهم في أيّ عمل عنف وتحت أيّ ظرف من الظروف. ومن أجل إجراء دراسة هادفة لهذا الموضوع، لا بدّ لنا من التفريق بين الإسلام والمسلمين. فليس بالضرورة لعمل المسلم أنْ يكون مستمدًّا من تعاليم الإسلام. وفي واقع الأمر، فإنّه يجب الحكم على ممارساته وَفقًا

لمعايير الإسلام -وهي عقيدة- بدلاً من الحكم على الإسلام من خلال ممارسات المسلم. فأولئك الذين هجروا تعاليم الإسلام لا يمكنهم الإدعاء أنّهم إسلاميّون في سلوكهم، حتى لو كانوا يعدّون أنفسهم أبطال الإسلام. فلا يكون المسلمون مسلمين إلا عندما يتّبعون التعاليم الأساسيّة لديانتهم.

السّلام هو اسم اللّٰه

لقد أورد القرآن أسماء الله الحسنى العديدة، التي كان من بينها اسمُ السّلام. إنّ الله يحبّ السّلام والأمن لدرجة أنّه اختار السّلام واحدًا من أسمائه. وهذا يعني إنّ الله تجسيد للسلام بنفسه.

وقد فسّر الخطابيّ هذه الآية بقوله:

«إنّ الله هو الكيان الذي يستمدّ الناس منه الأمن والأمّان، الذي يأخذ الناس منه تجربة السلم لا العنف». (القرطبيّ، الجزء 18، ص 46).

وقد وضع الله المعايير العليا لتحقيقها؛ أي أنّه عندما يرتكز تعامل الله معَ البشر على أساس السلم والأمن، فينبغي على الإنسان بعد ذلك أيضًا التعامل معَ غيره من البشر بطريقة مسالمة، لا قسوة فيها أو عنف.

لا تطرف

ولقد صدر الأمر الآتي في الجزء الرابع من القرآن:

﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ۝١٧١﴾ النساء

ووردت النقطة نفسها في الحديث الشريف؛ حيث قال رسول الإسلام:

«إياكم والغلوّ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ»

(النسائيّ، ابن ماجة، مسند أحمد 215/1، 347)

إنّ الغلوّ يعني التطرّف والمبالغة. وطريق التطرّف هي طريق غير صحيحة، مهما كانت الظروف؛ لأنّها تعارض روح الديانة. وفي الواقع، فإنّ التعرّض للتطرّف يبلغ ذروته في أوقات الحرب والعنف. فأولئك الذين يعانون ميولاً متطرّفة يبقون غير راضين عن مسار الاعتدال؛ لأنّ هذا يجرفهم بعيدًا عن المثاليّة. وهذا هو سبب انحدارهم نحو العنف بهذه السهولة، وهم على أهبّة الاستعداد وأكثر من أيّ وقت مضى لبدء العدائيّة تحت مسمّى تحقيق أهدافهم.

والجدير بالذكر أنّ الاعتدال، وهو نقيض التطرّف، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسّلام، فعندما يملك الناس فضيلة الاعتدال، فهم بالضرورة سيفكّرون وَفقًا للسلام، وسيتميّز نضالهم بالطريقة السلميّة. فأينما وُجد الاعتدال وُجِدَ السّلام، والعكس صحيح.

وفي تناقض صارخ معَ هذا، فإنّ موقف المتطرّف سيؤدّي به قريبًا جدًّا إلى المواجهة والعنف؛ فالتطرّف والعنف مترابطان بوضوح، وهذا هو السبب الذي عَدّت فيه الديانة التطرّف شيئًا بغيضًا. وقد يجوز القول إنّ العنف هو اسمٌ آخرُ للتطرّف، وأنّ الاعتدال هو الامتناع عن التطرّف.

قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعًا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ المائدة

إنّ الجريمة فعل رهيب حقًّا؛ فقتل الإنسان غير جائز إلا عندما لا يتوافر علاج آخرُ لدرء الخطر الذي يمثله على السلم الاجتماعيّ، وقتل النفس الواحدة بغير وجه حقّ كقتل الناس جميعًا، والفرق بينهما يكون في الدرجة لا في الطبيعة؛ فقتل نفس واحدة لا يقلّ بشاعة عن مقتل البشر جميعهم.

وقد يبدو مثل هذا القتل من غير جزاء مناسب مسألة بسيطة، لكنّ مثل هذا الفعل يكسر كلّ تقاليد احترام الحياة.

والآية أعلاهُ من القرآن تدلّل على عظيم أهميّة السّلام والأمن في الإسلام؛ فإذا قتل شخص ما من غير وجه حقّ فعلى الإسلام أنْ يطالب بتحرّك المجتمع كلّه على نحو كبير في وجه هذه الجريمة.

وأن يعملوا على نحو متّحد لاستعادة حالة من السّلام والأمن، هذا وينبغي أنْ تعامل على أنّها مسألة بالغة الأهميّة، كما لو كانت البشريّة كلّها تتعرّض للهجوم.

إطفاء نار العنف

وقد جاء في القرآن الكريم ما يأتي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ ﴿٦٤﴾﴾ المائدة

إنّ هذه الآية من القرآن تدل على خطّة الإنشاء الخاصّة بخالق هذا

العالم، وهي خطة تقوم على مبدأ السّلام. هذا يعني أنّه كلّما قرّر أحد جانبيّ المعارضة العمل على تأجيج نار حرب، فينبغي على الآخر أنْ يحاول إخمادها باللجوء إلى استراتيجيّة سلميّة لمنع العنف من الانتشار. ولا ينبغي أبدًا أنّه إذا ما انغمس جانب في أعمال العنف، كان على الآخر أنْ يحذو حذوه. فالطريقة الصحيحة والمرغوب فيها لنعيش حياتنا في هذا العالم ليس بمواجهة القنابل بالقنابل، وإنّما بنزع فتيلها وإبطالها. وينبغي أن يتمّ هذا في البداية. فإذا أردنا الرّوح الحقيقيّة للتعليم القرآنيّ الكريم، فعلينا أنْ ندرك أنّ التصدي للقنبلة بأخرى هو طريق الشيطان. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الطريقة التي يؤيّدها الله هي في تحييد القنبلة.

إنّه من الطبيعيّ جدًّا لأيّ مجتمع ما أنْ يواجه بعض المواقف السيئة؛ فيستحيل على أيّة جماعة من البشر أنْ تكون قد خلت في حياتها تمامًا في ما مضى من أحداث غير مرغوب فيها. وبناءً على ذلك، فإنّ الحلّ الفعليّ للمشكلة ليس في وضع حدّ للأحداث غير السارّة في حدّ ذاتها، وإنّما في الامتناع عن السماح بتفاقم الأمور، وهو ما يحدث إذا التقى اثنان من الأحداث غير السارّة معَ بعضهما. ومرّة أخرى، أودّ أنْ أؤكّد مجدّدًا أنّ القنابل ينبغي ألا تُواجَه بالقنابل. وبالامتناع عن العنف، فإنّنا نستطيع أنْ نحدّ من انتشار الآثار المدمّرة للاحتكاك الاجتماعيّ كحلّ وحيد ممكن.

الحرب للدّفاع

جاء في القرآن الكريم ما يأتي:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ الحج

وليست هذه مجرّد أوامر قرآنيّة موجّهة للمؤمنين من المسلمين، بل بيان لقانون دوليّ. لقد وضّحت الآية أعلاهُ وبوضوح أنّ الحرب جائزة فقط من أجل صدّ أيّ عدوان سافر، وهي تُشنّ هنا دفاعًا عن النفس. أمّا جميع الأشكال الأخرى للحرب فتأتي تحت عنوان العدوان، ولا مكان شرعيّ للمعتدين في هذا العالم. فوَفقًا إلى هذه الآية، لا يوجد أيّ مبرّر لأيّ حرب أخرى غير الدفاعيّة، عندما يضطرّ أحد للقيام بذلك.

وَوَفقًا للقرآن، فحتى الحرب الدفاعيّة لا يمكن خوضها إلا بعد إعلانها رسميًّا، ومن قِبل حكومة شرعيّة (18:58). أمّا المنظمات غير الحكوميّة فلا تملك الحقّ في شنّ حرب تحت أيّة ذريعة. وفي ظلّ هذه التعاليم، يمكننا أنْ نستنتج وَفقًا لقوانين الحرب المنصوص عليها في القرآن أنّ كلّ الحروب، باستثناء الحرب الدفاعيّة التي أصبحت لا مفرّ منها، غير مشروعة. ومثال ذلك: حرب العصابات، والحرب بالوكالة، والحرب غير المعلنة، والحرب العدوانيّة، فكلّها غير مشروعة في الإسلام بلا شكّ.

إنّ الحرب، فعليًّا، عمل وحشيّ، ولا يوجد شيء إنسانيّ بشأنها على الإطلاق. وفي الواقع، وَوَفقًا لمبادىء محدّدة ومعروفة للإسلام، فإنّ السّلام هو القاعدة، بينما الحرب هي الاستثناء النادر.

إنّ السّلام شيء يمكن أنْ نختاره في الظروف جميعها، بينما لا نتّخذ قرار شنّ الحرب إلا في أوقات الطوارئ لأغراض الدفاع، وعندما يصبح لا مفرّ منه، وحين تكون جميع الاستراتيجيّات السلميّة لتجنّب المواجهة قد باءت بالفشل.

إقناع سلميّ لا إكراه

في ما يخصّ موضوع الجهاد، فإنّ القرآن خاطب المؤمنين هكذا:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢ ﴾
الفرقان

كما نعلم، فإنّ القرآن الكريم كتاب فكريّ، فهو ليس بالبندقية ولا بالسيف. ولذلك، فإنّ « **الجهاد** » بفضل القرآن يعني فقط نقل الأفكار من القرآن الكريم إلى الناس. هذا يعني أنّ علينا أنْ نناضل بسلام لجعل أفكار القرآن الكريم مفهومة من خلال تقديمها على شكل حجج منطقيّة.

إنّ الآية المذكورة أعلاهُ قد أوضحت أنّ ما يسمّى بالجهاد في الإسلام يستلزم فقط نوع النضال السلميّ الذي لا علاقة له بالعنف. الكلمة العربيّة «**الجهاد**» مشتقة من الجذر «**جهد**» الذي يعني السعي، والنضال من أجل، وبذل النفس إلى أقصى درجة ممكنة لتحقيق هدف المرء. وهذا هو المعنى الأصليّ لـ «**الجهاد**» في العربيّة.

إنّ هذه الآية تظهر أنّ الجهود السلميّة وإلى حدّ كبير تتفوّق على جهود العنف. وكلما لجأ الإنسان إلى أسلوب العنف، فإنّ نطاق جهوده يصبح محدودًا للغاية. وفي اللجوء إلى العنف، ليس أمامنا إلا السيف والبندقيّة، بينما نستخدم أنواع الأشياء المتوافرة جميعها لتحقيق هدفنا بالطرائق السلميّة. وحتى القلم في الغرفة المغلقة يمكن أنْ يخدم غرضًا كبيرًا.

الالتزام بالحقيقة معَ الصّبر والمثابرة

يخبرنا القرآن أنّ الذين يمكنهم تجنيب أنفسهم الخسارة وتحقيق الحياة الناجحة، هم:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣ ﴾ العصر

ومن المؤسف أنّ من يلتزم مسار الحقيقة بنفسه، أو يدعو الناس إلى قبولها يتمّ رفضه من الآخرين على الدوام. فالمقاومة التي عليه أنْ يواجهها كبيرة جدًّا. وما على محبّ الحقيقة فعله هنا هو ممارسة الصبر اللامتناهي، فيجب عليه أنْ يتحمّل بكلّ ثبات المشاقّ جميعَها من غير أنْ يحاول تحميل مسؤوليّتها لغيره.

إنّ الصبر اسمٌ آخرُ للسلوك اللاعدوانيّ، ويعني أنّه ينبغي للذي يدافع عن الحقيقة عدم مواجهة العنف بالعنف، ممّا يتطلب التزامه بالسُّبل السلميّة التزامًا أحاديّ الجانب.

فمن يتبنّى طريق الحقيقة، لا بدّ له من هجر العنف، فالعنف والحقيقة لا يجتمعان معًا. ومن يريد اختيار الحقيقة لا بدّ له من التخلّي عن العنف؛ فالعنف، أيًّا كانت أسبابه أو مبرّراته أو ذرائعه، يظلّ عنفًا. وأشكال العنف جميعها خبيثة بلا فرق، ولا يوجد أيّ مبرّر كان يمكنه أنْ يلغي عواقب العنف المدمّرة أو يقلّل منها. ومن مساوئ العنف أنه يستثير السلوك الذي يسعى إلى محاربته ويعزّزه؛ فبدلاً من تقليص الشرّ فإنّ العنف يعمل على تكاثره.

ويبقــى ارتكاب العنــف باسم الحقيقــة نفيٌ للحقيقــة، أمّــا أولئك الذين يمارسون العنف باسم الحقيقة فهم يثبتون فقط أنّ قضيّتهم بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة، ومحــبّ الحقيقة لا يكون أبدًا محبًّــا للعنف، ومن يحبّ العنف بالتأكيد ليس محبًّا للحقيقة، حتى لو كان يَعُدّ نفسه بطلاً للحقيقة.

اعتماد نهج المصالحة

لقد سادت حالة الحرب بين قريش والمسلمين خلال أوقات نبيّ الإسلام؛ نتيجة لعدوان قريش على خصومها. وفي هذا السيــاق، فإنّ إحدى الوصايا التي وردت في القرآن الكريم بهذه المناسبة، هي:

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ ﴾ الأنفال

تدلّ هذه الآية من القرآن الكريم على أنّ السّلام مرغوب فيه في الإسلام إلى أقصى حــدّ ممكن، حتى لو لم يكــن إحلال السّلام إلا مــن خلال تكبّد المخاطر، فإنّه ينبغي أنْ تكون هذه طبيعة الحال من غير تردّد كما شرع في القرآن الكريم.

وإذا قدّمت أيّ عروض للصلح من الخصوم في أثناء الحرب، فيجب قبولها من غير أيّ تأخير، حتى لــو افترضنا أنّ هناك خوفًا مــن بعض الخداع في عرض السّلام، فإنّنا يجب أنْ نقبل العرض على أمل أنّ الله سوف يكون دائمًا إلى جانب محبّي السّلام لا المضلّلين.

وحقيقة أخرى تظهر هنا، في هذا العالم، وهي أنّه لا يمكن إحلال السّلام إلا من خلال أولئك الذين يملكون قدرًا كبيرًا من الشجاعة، وفي العالم الحاليّ فإنّ مشكلات تنشأ حتمًا بين جماعات مختلفة؛ ذلك لأنّه لا توجد حالة إنسان مثاليّة على الإطلاق. فالجميع في مرحلة ما في حياتهم يواجهون بعض الظلم وسلب ما ينتمي إليهم من غير وجه حقّ. في هذه الحالات، يمكن لمثل هؤلاء الأفراد فقط إحلال السّلام بارتفاعهم فوق كلّ الاعتبارات وازدراء كلّ الذرائع للدخول في انتقام عنيف. والحقيقة هي أنّ الشجاع والشجاع جدًّا هو فقط من يستطيع إحلال السّلام في هذا العالم. وأولئك الذين يعانون نقصًا في الشجاعة سيواصلون الصراع، ومن ثَمّ لن يسمحوا بإعادة كتاب تاريخ العالم وَفقًا لشروط السّلام المباركة.

لا فساد على هذه الأرض

يشير القرآن في الآية الآتية إلى نوع معيّن من الشخصيّة، التي أسمت نفسها بالمصلح:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

البقرة

ويشير هذا إلى أولئك الذين يدّعون أنّهم يمضون في العمل الإصلاحيّ، ولكنّ بأسلوب غير صحيح؛ كون نتيجة أفعالهم هي الفساد والانحراف. و «الفساد» هنا يعني أنّ نشاطاتهم تقود إلى الاشتباك معَ الآخرين ومواجهتهم، ممّا يخلق جوًّا من الكراهية المتبادلة، وتتقوّض الأخلاقيّات خلال هذه العمليّة ويسود التفكير السلبيّ، ويشار إلى كلّ هذه العوامل على أنّها إشاعة الفساد في

الأرض؛ لأنّها تدمّر كلّ السلم الاجتماعيّ. وفي نهاية المطاف، يكون أعضاء المجتمع على خلاف أبديّ معَ بعضهم بعضًا.

إنّ هذا الدرس القرآنيّ يدل على أنّه ليس كافيًا للممارسة أنْ يكون لدى الإنسان هدف جيّد ليكون على صواب، كما يدلّ على أنه يجب فحص الآثار الجانبيّة الناتجة التي قد تنشأ عن مثل هذا النوع من الإصلاح.

ولو أنّ هذه النشاطات نفسها أنتجت التوتّر والصراع -رغم أنّ هدفها هو الإصلاح- فإنّه سيتمّ عدّ منفّذيها ناشرين للفساد، وسوف تتمّ إدانتهم على أنّهم مجرمون لا صانعي سلام ومصلحين وخُدّامًا للإنسانيّة.

فلا إصلاح يكون حقًّا كذلك، إلا إذا اقتصر في مجال السّلام والإنسانيّة. كما أنّه ستتمّ إدانة أيّ عمل، حتى لو تمّ تنفيذه باسم الإصلاح، على أنّه يخلّ بالأمن، أو الأسوأ من ذلك، يقود إلى خسائر في الأرواح أو تدمير للممتلكات. وينبغي على مَهَمَّة الإصلاح أن تؤدّي إلى الإصلاح، أمّا إذا أدّت إلى الفساد فإنّ هذه الحركة الإصلاحيّة بحدّ ذاتها ليست إلا شكلاً من أشكال الانحراف الاجتماعيّ، رغم أيّ كلمات برّاقة قد تستخدم في وصفها.

الرزق الأكبر

لقد أورد القرآن مبدأ الحياة الآتي:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ ﴾طه

هناك طريقتان مختلفتان جدًّا في الحقيقة ليحيا كلّ إنسان حياته الخاصّة:

أمّا الأولى، فهي موجّهة وعلـى نحو كليّ نحو العالم المـاديّ، فلن تجد حدًّا لطموحات الذين يسعون إلى النجاح انطلاقًا من الثروة والشرف الدنيويين؛ لأنّه ومـا دامت أهدافهـم دنيويّة بحتة، فسيجـدون أنّ الكثيـر ممّن حولهم يمتلكون أكثر ممّا لديهم، ولا مفرّ من مثل هذه المفارقات. لذلك، فإنّ الإنسان الذي يعيش لأجل ماديّة الأشياء سيكتشف أنّه يعيش في حرمان دائم. وهنا، تنتج مشاعر السخط والغيرة، التي تتراكم معَ الوقت على شكل تنافس وانتقام وعنف مرافق لكلّ هذا.

أمّا الطريقـة الثانيـة بالنسبّة إلى الفرد فهـي أنْ يعيش حياتـه معَ شعور الإنجاز، ومثل هذا الشخص سيكون راضيًا؛ فشعـوره بالإنجاز سيمنعه من تغذية الكراهية ضدّ الآخرين أو الانخراط فـي أعمال العنف. ولكنْ من هم أولئك الذين مُنحوا بركات هذا الشعور؟ إنّهم بكلمات القرآن الكريم الذين يستلمون النعم من الله، فنعمة الله تعني الاقتناع باكتشاف الحقيقة؛ أي أنّ وجودهم الذي باركه الخالق هـو أثمن من كلّ كنوز العالـم وذهبه وفضّته. فعلى كلّ فرد أن يحيا حياته بوعي تامّ بأنّ مصدر تغذيته الفكريّة والروحانيّة هو الكون بأسره.

فالذي يصبح متلقيًا لنعم الله في هذا العالم يرتفع عاليًا جدًّا لدرجة أنّ الأشياء الماديّة مثل الثـروة والسلطة تصبح ضئيلة فـي عينه، وتحوّله هذه النفسيّة ومـن تلقاء نفسها إلـى شخص محبّ للسـلام، فالكراهية والعنف تبدوان له بـلا معنى، فليسـ لديه الوقـت لمثل هـذه العواطـف السلبيّة أو التخطيط للقيـام بأعمال عنف. وعليـه، فإنّ الذي يجد الأكبـر يستحيل أنْ يسعى نحو الأدنى، ولن ينخرط بناءً على هذا في أعمال العنف.

إسكات التذمّر مباشرة

إنّ عقليّـة المتذمّر عقليّـة عدوانيّة؛ فهـي تخنق التفكيـر الإيجابيّ، وهي التفكير السلبيّ الناتج الذي بلا شكّ هو السبب الرئيس وراء كلّ الشرور في معظم الحالات؛ إذ هو يؤدّي إلى إحساس دائـم بالظلم، سواء أحقيقيًّا كان أم وهميًّا، ممّا يجعله السبب وراء أيّ أعمال عنف تحدث.

لقد وُضعت خطّة الخلق في هذا العالـم الحاضر بطريقة لا مفرّ فيها من التشكّي والتظلّم. وبناءً على ذلك، فإنّه يجب رفض الفكرة مباشرة بمجرّد أنْ تتّخذ شكلها في تفكيرنا. فالتذمّر إذا أشير إليه وتمّ إحياؤه باستمرار، فإنّه يصبح راسخًا في الذاكرة بحيث لا يكون هناك مجال لطرده لاحقًا. وفي مثل هذا الموقف، فإنّه من الحكمة أنْ يتمّ وأد التذمّر في مهده، وإذا تعذّر ذلك، فإنّ التذمّر وعلى نحو تدريجـيّ سيصبح جزءًا دائمًا من شخصيّتك، وعليه فإنّ تفكير المرء يكسبه طابعًا سلبيًّا، سوف يظهر الآخرون فيه مثل الأعداء. وإنّ سنحت له الفرصة، فإنّ مقدّم الشكوى لن يتردّد في ممارسة العنف ضدّ أهداف شكواه وتذمّره، حتى لو كان هو نفسه يعاني نتيجة لذلك.

ما الصيغـة لوضع حدّ للتذمّـر منذ البدايـة؟ إنّ ذلك يكـون بالتعمّق في التفكير في الآية الآتية من القرآن الكريم:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ الشورى

هذا يعني أنّه كلّما كان لدينا سبب للشكوى ضدّ أيّ شخص، يجب أنّ نوجّه اللوم لأنفسنا بداية؛ إذ ينبغي لنا حينئذٍ أنْ نحاول تفسير شكوانا بطريقة يقع

اللوم من خلالها علينا. فعندما نتوصّل إلى فهم أنّنا ارتكبنا خطًأ ما، حينها علينا العمل على تصحيح أوجه القصور الخاصّة بنا، بدلاً من إضاعة الوقت في الاحتجاجات والتذمّر ضدّ العدوّ المفترض.

رحمة للعالمين

لدى القرآن ما يقوله هنا لرسول الإسلام:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾الأنبياء

لقد أدّى ظهور نبيّ الإسلام إلى جعل رحمة الله تبدو واضحة للبشريّة جمعاء؛ فمن خلاله أرسل الله هذه المبادئ التي باختيارها فإنّ الإنسان يعيش في دار السّلام والأمن الأبديّة. (دار السّلام) (10:25)، ومن خلاله تمّ الكشف عن مثل هذه التعاليم التي كان من شأنها أنْ تحوّل مجتمع الإنسان إلى مجتمع سلميّ. ولأوّل مرّة في التاريخ، فقد قدّم نبيّ الإسلام عقيدة كاملة تقوم على مفهوم السّلام.

لقد قدّم لنا صيغة لبناء حياة صحيّة عن طريق نبذ الكراهية والعنف، ومن خلاله فقد دبّ الحراك في ثورة جعلت من الممكن بناء مجتمع سلميّ من خلال تجنّب الحرب والمواجهة. ورغم أنّ نبيّ الإسلام كان قد اضطرّ إلى شنّ معارك قليلة، فإنّها كانت وجيزة، حتى إنّنا نستطيع وصفها بالمناوشات بدلاً من الحرب الشاملة. سيكون من الصحيح تمامًا أنْ نقول إنّ نبيّ الإسلام ابتدأ ثورة، على الرّغم من عظم شأنها ونطاقها وتداعياتها، إلا أنّها كانت غير دمويّة تقريبًا. ولقد أعطى السّلام سمة العقيدة أو نظام الحياة، وجعل من الواضح لأتباعه أنّ العنف وسيلة للتدمير، بينما السّلام هو السبيل للبناء

والتشييد. لقد عَدّ الصّبر أعظم شكل من أشكال العبادة، كما عَدّ **الفساد** الجريمة الأكبر كونه يزعج نظام الطبيعة الآمن.

كما أمر النبيّ المؤمنين أن يُحيّوا بعضهم بعضًا بعبارة (**السّلام عليكم**)، وفي هذا دَلالة على أنّ العلاقاتِ المتبادلةَ ينبغي أنْ تبنى على السّلام والأمن. لقد أخبر النبيّ المؤمنين بـأنّ الفوز بالآخرة ينبغـي أنْ يكون هدفًا لنضال الإنسان، وبهذه الطريقة تتبدّد الفكرة القائلـة بأنّ التقدّم الدنيويّ يجب أنْ يكون هدف الإنسان في الحياة؛ لأنّ هذا هو ما يؤدّي في نهاية المطاف إلى أنواع المواجهة والعنف جميعها. وكانـت صيغتة لعيش أفضل تتمثّل في جعل الشخص نفسه مفيدًا للآخرين، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فعلى الأقلّ عدم الإساءة إليهم وعدم عَـدّ أيّ شخص عدوًّا، فحتى العـدوّ لا بدّ له أنْ يحظى بمعاملة عادلة؛ لأنّه حينها فقط يدرك المرء أنّ العدوّ كان صديقًا محتملاً: «العدو» لديه دائمًا في داخله قابليّة أنْ يكون صديقًا.

السّلام في الظروف كلّها

لقد كان رسول الإسلام من محبّي السّلام لأقصى الحدود، ولطالما حاول خصومه أنْ يستدرجوه إلى الحرب مرارًا وتكرارًا، لكنه كان يتجنّب التورّط في كلّ مرّة. ومعَ ذلك، وفي بعض الأحيان نظرًا إلى العدوان من جانب واحد، لم يكن أمامه من خيار سوى القتال دفاعًا عن النفس، ولمدّة محدودة.

(بَدْرٌ) كانت معركة من هذا القبيل.

ويظهـر التاريخ أنّـه عندمـا كان الجيشان مـن كلا الجانبيـن مستعدّين للمعركة، هبط جبريل، ملاك الله، على النبيّ وقال له:

«السّلام يقرئك السّلام، ويخصّك بالتحية والإكرام».

وعند سماع هذا، أجاب نبيّ الإسلام: «الله هو السّلام، السّلام هو منه وإليه هو السّلام» (البداية كانت النهاية، الجزء الثالث، ص 267).

وهذا الحادث يدلّ على أنّ نبيّ الإسلام حتى في هذه المرحلة، كان محبًّا للسلام. حتى في أوج تلك المرحلة، فإنّ عقله كان خاليًا من مشاعر الكراهية والعنف، بل كان يفكر من منطلق السّلام والأمن، وكان قلبه ينبض بالرّغبة في إنشاء هذه الظروف في العالم بعون من الله. فالرّجل الحقّ هو الرجل الذي يستطيع أنْ يفكر في السّلام حتى في أوقات الحرب، الذي يمتلئ قلبه بمشاعر السّلام والأماني الطيبة، حتى خلال الطوارئ على ساحة المعركة.

وهذا ليس بالأمر العاديّ المألوف؛ ففي عالم الواقع يخدم هذا بمثابة المثال الأعلى للتفكير الإيجابيّ. وكما نعلم جميعًا، فإنّ الحرب هي الأكثر سلبيّة في الأحداث جميعها؛ فالنبيّ الذي كان يترأس إدارة المعركة، وعلى وشك البدء بالحرب، نطقت شفتاه كلمات السِّلم والأمن بدلاً من الحرب والعنف. وهذا مؤشّر على فضيلة الإنسان الأعلى؛ فالأنبل شخصيّة بين الناس هو الذي يفكّر في السّلام وسط العنف، ويخطّط للمصالحة حتى في زمن الحرب.

مواطنون مسالمون

وَوَفقا لحديث، يُعرّف نبيّ الإسلام المؤمن على النحو الآتي:

«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ: الْمُؤْمِنِ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم» (الترمذيّ، والنسائيّ، وابن ماجة، ومسند الأمّام أحمد)

هناك طريقتان ليحيا الإنسان حياته في المجتمع؛ أولاهما أنْ يعيش بسلام بين من حولـه، والآخرُ الاستمرار فـي المشاجرة معَ الآخريـن. وَوَفقًا لهذا الحديث، فإنّ الطريق إلى المؤمنين والإيمان تكون بالعيش السلميّ كمواطنين في المجتمع؛ فلا ينبغي لأحد أنْ يشكّل أيّ خطر على ممتلكات الآخرين، أو حياتهم، أو أعراضهـم. وينبغي على المرء ألا يتّخذ طريـق العنف تحت أيّ ظرف من الظروف.

كيف ينبغي أنْ نعيش الحياة بحيث يبقـى أعضاء المجتمع سليمين آمنين من ظلم الآخرين؟

علينا المحافظة على الاعتـدال، بغضّ النظر عن وجـود أسباب للتذمّر، وينبغي أنْ يكونوا قادرين على دفن تذمّرهم في قلوبهم الخاصّة، بدلاً من صبّه على آخرين. إنّ المجتمع الذي يسوده مثل ضبط النفس هذا هو مجتمع يتمتّع أعضاؤه بالشعور بالأمان. وفي الواقع، فإنّ المجتمع السلميّ هو الإطار المثاليّ لتحقيق التنمية البشريّة الإيجابيّة. وعلى العكس من ذلك، فإنّ المجتمع الذي يحفّه العنف هو مجتمع حيوانيّ وليس مجتمعًا بشريًّا.

إنّ محبّة السّلام فضيلة إنسانيّة نبيلة، بينما ينحطّ حبّ العنف بالإنسان وباستمرار من الأخلاقيّة العالية إلى مستوى الحماقة المتدنيّة.

لا مواجهة معَ العدوّ

ويقول نبيّ الإسلام:

«لا تتمنّى المواجهة معَ العدو، واطلب السّلام من اللّه».

وهذا يعني أنّه إذا أصبح شخص ما عدوّنا، فلا ينبغي أنْ نتحوّل بالضرورة ضدّه ونبدأ القتال معه. فرغم عدائيّته، ينبغي علينا أنْ نختار تجنّب الاحتكاك معَه؛ لمنع الصراع على نحو فعّال.

«اسأل عن السّلام من الله»، معناها أنْ نختار طريقة السّلام بدلاً من المواجهة، فنحصل على عون الله للمضي في السّلام. كما ينبغي على المؤمن ألا يدعو الله هكذا: «يا الله، دمّر العدوّ»، بل ينبغي أنْ يكون دعاؤه كالآتي: «يا ربّ، ساعدني على البقاء بعيدًا عن طريق العنف والمواجهة، رغم عدائيّة الآخرين، وساعدني على مواصلة رحلة حياتي على طريق السّلام».

وهذا يدلّ على أنّه وَفقًا لخطّة الطبيعة، فإنّ السّلام في هذا العالم هو القاعدة العامّة، في حين أنّ العنف ضرورة مؤقتة. وعلاوة على ذلك، فإنّ هذا يخبرنا أنّه إذا كان عدوُنا فردًا أو جماعة، فإنّ طريقة المواجهة ليست الطريقة الوحيدة لحلّ مشكلة. والطريقة الأفضل والأكثر ملاءمة هي تحييد العداء من خلال استراتيجيّة سلميّة. إنّ قوّة السّلام أكثر فعاليّة وأكثر فائدة بكثير من قوّة العنف.

الأسلوب السلميّ هو الأفضل

إنّنا نتعلم من الأثر كيف كانت سياسة النبيّ في المسائل العامّة:

«وما خُيّر – صلّى الله عليه وسلّم- بين أمرين إلا اختار أيسرَهما ما لم يكن إثمًا» (البخاري)

إذا نظرنا إلى مبدأ اختيار الأسهل في سياق العنف في مقابل الطريقة السلميّة، فسيكون من الصحيح القول إنّ طريقة النبيّ في أيّ موقف كانت

بالامتناع وبمثابرة عن استخدام الأساليب العنيفـة في التعامل معَ المسألة في متناول اليد، ولهذا فإنّ المسار السلميّ يجب أنْ يؤخذ دائمًا؛ لأنه وممّا لا شكّ فيه أنّ أسلوب العنف يقع ضمن فئة الخيار الأصعب، في حين أنّ العكس هو الصحيح بالنسبة إلى الطريقة السلميّة.

ومعَ ذلك، فالمسألة ليست مسألة خيارات أسهـل أو أصعب، بل تعني أنّه وبتأمّلنا العام، فإنّ الأسلوب السلميّ يكون موجّهًا دائمًا من أجل تحقيق نتائجَ إيجابيّة، في حين أنّ أسلـوب العنف ليس إلا تمرينًا فـي العبثية. فالأسلوب العنيف لا يفشل في حلّ المشكلة فقط، لكنّه يزيد من تفاقمها وتعقيدها. وفي الحديث، فإنّ الطريق الصعبة تعني اتّباع المسار المليء بالعقبات.

وعلى العكس من ذلـك، فالطريق الأسهل يعني التصـرّف بطريقة تُسهّل تحقيق هدفنا.

حدود الاختلاف

يقول نبيّ الإسلام من ناحيةٍ ما يأتي:

«أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر». ومن ناحية أخرى، فقد ورد حديث آخرُ للنبيّ: «من كـره من أميره شيئًـا فليصبر عليـه». وبالمثل، في مناسبة آخرى، يقول النبيّ: «تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك».

يبدو أنّ هناك نوعين مـن الوصايا في هذه الأحاديـث: فمن ناحية، فقد أمرنا أنْ نقول للحاكم بوضوح ما إذا كان يسير في الطريق غير الصحيح أم

لا، في حين أنّ الحديث الآخرَ يفرض علينا البقــاء صابرين من جهتنا وأنْ نتحمّل كلّ ظلم من الحاكم.

إنّ هذه تعاليم في غايــة الأهميّة، وهــي تميّز بين التواصل فــي المشورة اللفظيّة، ومن ثَمّ اتخاذ خطوة عمليّة. ومن المرغوب فيه بالتأكيد أنّه إذا رأى شخص مُوالٍ حاكمَهُ وقد اتّخذ الطريق الخطأ، فإنّ عليه أنْ يلفت انتباهه إلى هذا بأسلوب ليّن فيه النصح، ولكن بقدر الاهتمام باتخاذ الخطوات العمليّة، فإنّه لا بدّ له من الامتناع كليًّا عن القيام بذلك، وعلى الحاكم أنْ يفرّق بين النصح الصادق وسياسات المواجهة، كما أنّ عليه الإفادة من حقّه الشرعيّ بأنْ ينطق كلمات المشورة الصالحة، وأنْ يمتنع عن المواجهة السياسيّة.

إنّ هذا المبدأ الأساسيّ غاية في الأهميّــة، فجوّ العنف ينشأ في المجتمع عندما يطلق أعضاؤه حركات المواجهة ضدّ حكامهم؛ وذلك بهدف الإطاحة بهم تحت اسم الإصلاح السياســيّ. ولكن، ومن ناحية أخــرى، إذا قصّروا أنفسهم على النصيحة اللفظيّة وامتنعوا عن السياسة المثيرة للجدل فسيبقى المجتمع مسالمًا دائما، ولن يصبح أبدًا غابة من العنف.

فضيلة المرونة

كما ورد في الإسناد، يقول نبيّ الإسلام: «مثل المؤمن كالخامة من الزرع، تفيئها الرّيح مرّة، وتعدلها مرّة»، وهكذا، فإنّ هناك طريقتين للتصرّف في أثناء وجود عاصفة. الطريقــة الأولى بمواجهتها بكلّ صلابــة، أمّا الطريقة الثانية فهي أنْ تكون مرنًا وأنْ تنحني في مواجهتها. وهنا يمكننا أنْ نضع الأمر بطريقة مختلفة فنقول: هناك طريقتان لمواجهة الشدائد: واحدة بالطرائق

السلميّة، والأخرى من خلال الطريقة العنيفة. إن الله سبحانه يأمر بالتخلّي عن أسلوب العنف في صالح الطريقة السلميّة.

إنّ العنف ذو علاقة بحبّ الذات في الأساس، وهذه الأنا حينما يتمّ استفزازها تخلق تقريبًا أنواع العنف والقلاقل جميعها؛ فعندما تتأثّر الأنا لإنسان، فإنّها تتحوّل إلى الأنا العظمى، والنتيجة تكون هي الانهيار. ومن المُسلمات أنّ أولئك الذين يعانون الأنانيّةَ اختاروا ألا يكونوا مرنين في مواجهة عواصف الحياة. وعلى العكس، فإنّ المتواضع هو من يخطو على طريق السّلام، في مواجهة الشدائد. وفي عالم الله هذا فإنّ الدمار هو مصير أولئك الذين ينغمسوا في الأنانيّة، في حين ينتظر النجاحُ أولئك الذين يديرون أنفسهم بكلّ تواضع. وكان حديث آخرُ قد أكّد النقطة نفسها:

«من تواضع لله رفعه».

لذلك فإنّ سرّ التعايش السلميّ هو بالمثابرة على تجنّب صدام الأنا التي تجري بين الأفراد أو الجماعات. وهذه هي الصيغة الوحيدة لإقامة مجتمع سلميّ على أساس دائم.

إثبات بديهيّ

عقدت في السادس من شباط عام 1998م ندوة لمّدة ثلاثة أيام في واشنطن تحت رعاية الجامعة الأميركيّة. ألقى فيها الكاتب خطابًا حول مفهوم السّلام في الإسلام، أعيدت صياغة جزء منه في ما يستبع من هذا الكتاب.

ولا مبالغة في القول إنّ الإسلام والعنف متناقضان معَ بعضها بعضًا. إنّ مفهوم العنف الإسلاميّ هو مفهوم لا أساس له من الصحّة.

وحقيقة أنّ العنف غير مستدام في العالم الحاليّ كافية لتبيّن أنّ العنف من حيثُ المبدأ غريبٌ عن خطط معالجة الأشياء في الإسلام. يدّعي الإسلام أنّه دين الأبديّة، وعلى هذا النحو، فإنّه لا يمكن أنْ يضع في مخططه أيّ مبدأ قد لا يكون مناسبًا في وقت قادم من الزمن. إنّ أيّ محاولة للعنف في الإسلام من شأنها إلقاء الشكّ على ديمومة الديانة الإسلاميّة.

إنّ عبارة مثل «العنف الإسلاميّ» تحمل النوع نفسه من التناقض، كما في قولنا «الإرهاب السلميّ». والحقيقة هي أنّ كلّ تعاليم الإسلام تقوم بصورة مباشرة أو غير مباشرة على مبدأ السّلام. فبينما يمكن تحقيق كلّ الأهداف الإسلامية في جوّ سلميّ، فإنّه لا توجد أهداف إسلاميّة يمكن تحقيقها في جوّ من العنف.